ميراث الأنبياء
١٤٤٨هـ

النَّبِيُّ وَالشِّرْكُ

"اِتِّهَامٌ خَطِيرٌ"

لِلشَّيْخِ:

أَحْمَد مُوسَى جِبْرِيل

حَفِظَهُ اللَّهُ وَثَبَّتَهُ

ميراث الأنبياء
١٤٤٨هـ

النَّبِيُّ وَالشِّرْكُ

"اِتِّهَامٌ خَطِيرٌ"

لِلشَّيْخِ:
أَحْمَدَ مُوسَى جِبْرِيل
حَفِظَهُ اللَّهُ وَثَبَّتَهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النَّبي المصطفى، سيِّدنا محمَّد، وعلى آله صحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فهذا تفريغ لمحاظرة الشيخ العلَّامة أحمد بن موسى بن عبد الله آل جبريل -حفظه الله ورعاه ونفعنا بعلمه-، الموسومة بـ : "الرَّسُولُ ﷺ وَالشِّرْكُ: اتِّهامٌ خَطِيرٌ". ردَّ فيها على زعم الغلاة الخوارج أنَّ النَّبي ﷺ وقعَ في الشِّرك قبل بعثته، أي أنَّه كان عليه لمدَّة أربعين عاماً! فدحضهم وشبهتهم ونسف أدلَّتهم وبيَّن ضعفها وفهمهم السَّقيم لها.

ونشكر الأخ الُمترجِم الشُّكر الجزيل، نسأل الله أن يبارك فيه وفي أهله وأن يجعل جهوده في ترجمة دروس الشَّيخ في ميزان حسناته.

ونسأله كذلك سبحانه أن ينفع بهذا العمل الإسلام والمسلمين وأن يهدي به من شقَّ صفَّ المؤمنين، آمين.

النص المفرغ

سُئل الشيخ العلَّامة أحمد موسى جبريل -حفظه الله ورعاه ونفعنا بعلمه-: "يزعم بعض الناس أنَّ الرسول ﷺ وقع في الشرك قبل بعثته، فهل هذا صحيح؟"

فأجاب: الإجابة البسيطة على هذا هي إجابة الإمام أحمد بن حنبل حين سُئل عن هذا، فقد سُئل عن رجل يقول بهذا القول، فأجاب: "ينبغي أن يُحذر كلامه"، وأوصى أن لا يُجالَس ذلك الشخص ولا يُستمَع إليه، ثم قال: "قاتله الله، وأيُّ شيءٍ يبقى (من دين المرء) إذا زعم أنَّ رسول الله ﷺ كان على دين قومه وهم يعبدون الأصنام".

ذكرَ بعض العلماء أنَّ الرسول ﷺ حتى قبل أن يُنزَّل عليه الوحي كان يُلقَّب بالرَّسول، قالوا: إنَّه كان رسولاً منذ أن أُخذ الميثاق. في مسند أحمد، روى العِرباض بن سارية رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: "إنِّي عبد الله -سبحانه وتعالى- لَخاتَم النبيِّين، وإنَّ آدم عليه السلام لَمُنْجدِلٌ في طينته". (1)

---

(1) أي قبل نفخ الروح فيه.

إنَّ تأخير ولادته الجسدية، وتأخير نزول الوحي عليه، لا ينفيان نبوَّته قبل ظهوره، وقد ذهب العلماء الذين قالوا بهذا إلى أنَّ الأمر كمن في منصب أو وظيفة، فيُمنح منصب سلطةٍ أوَّلاً، ثم يُؤمر بتولِّي مسؤوليَّاته في وقت لاحق. لقد كان رسولاً ﷺ منذ أخذ الميثاق، ومنذ اللحظة التي خرج فيها نورٌ عند ولادة أمِّه له ﷺ، ومنذ أن كان آدم -عليه السلام- لا يزال يُشكَّل في طينته، وقد ذُكِر باسم الرَّسول قبل ولادته بحوالي ستِّمائة سنة، على لسان عيسى عليه السلام ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، مع أنَّ كل هذا بعين الاعتبار، هل يُتصوَّر أنَّ رسول الله ﷺ قد اختاره الله وعيَّنه، قبل ولادته حتَّى، وبُعث بالمهمة الأعظم، وهي محاربة الشرك وإقامة التوحيد، هل يُعقل أن يرتكب هو بنفسه الشرك؟

جاء في مسند أحمد، أنَّه ﷺ قال لخديجة -رضي الله عنها-: "والله لا أعبدُ اللَّات والعزَّى، والله لا أعبدُ أبداً".

وفي صحيح البخاري، ذُكر أنَّه قبل البعثة كان هناك رجل اسمه زيد بن عمرو بن نُفيْل -وكان ابن عمِّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه-، وقد كان على الحنيفية، أي: على ملَّة إبراهيم.

وقد ذُكر أنَّه لم يكن حتَّى يأكل اللَّحم الذي ذُبح على اسم الأصنام، ولم يكن زيد بن عمرو نبيّاً ولا رسولاً، وإنَّما كان من القِلَّة التي كانت على التَّوحيد في ذلك الزَّمان، وقد تبرَّأ من الشِّرك وبعُدَ عنه، وتُوُفِّـيَ قبل أن يُبعَث الرَّسول ﷺ، وكان يقول: "إنِّي على دين إبراهيم". [1]

فإذا كان هذا هو الحال مع رجل عادي، فتصوَّر كيف يكون حفظ الله سبحانه وتعالى لرسوله الذي أُرسِل رحمةً للعالمين؟ وكيف لأحدٍ أن يتصوَّر أنَّ الرَّسول ﷺ كان يُقارف الشِّرك وقد طُهِّر قلبه؟ لقد عُلِّمنا ونحن صغار أنَّه ﷺ وهو طفل صغير، أُخرِج قلبه من صدره، وغسَله ملَك بماء زمزم في طستٍ[2] من ذهبٍ أُرسِل به من عند الله سبحانه وتعالى، فطُهِّر قلبه الشَّريف من حظِّ الشَّيطان منه.

ما الذي قد يكون أهمَّ من تطهير قلبِه المبارك من الشِّرك؟ لا توجد آيةٌ واحدةٌ في القرآن، ولا في حديثٌ صحيحٌ يدلُّ على أنَّ الرَّسول ﷺ ارتكب الشرك قطُّ. ويمكنك أن تجدَ الأدلَّة على ذلك، والتي جمعها العلماء، وتوجد عادةً في أبواب "دلائل النبوَّة" كما في كتب البيهقـي وأبي نعيـم الأصبهـاني

(1) صحيح البخاري (3827).

(2) إناء.

والسيوطي وغيرهم، وأوَّل حديث، وهو في صحيح البخاري يقول: "ثُمَّ حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يَلحقُ بغار حِراء فيتحنَّث فيه". كان يذهب إلى غار حِراء قبل النبوَّة. وعبارة "فيتحنَّث فيه"، لها عدَّة معانٍ، أحدها أنَّ أصلها "يَتَحَنَّفُ" أي: يتجرَّد للتَّوحيد الخالص، لملّةَ إبراهيم. وقد أشار بعض العلماء إلى أنَّ الحرف "ف" في كلمة "فتيحنَّف" قد حُوِّل إلى "ث" لتُصبح "فيتحنَّثُ"، وقالوا إنَّ ذلك شائع في اللُّغة العربيَّة. فمعنى "يتحنَّفُ" أنَّه كان يتَّبع ملَّة إبراهيم، وتوجد روايةٌ بلفظ "فيتحنَّفُ". قد كان يذهب إلى الغار ليعبُد الله على الحنيفيَّة، على ملَّة إبراهيم.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد حمى النَّبي ﷺ من أمورٍ أقلَّ خطراً من الشِّرك، مثل أن يظهرَ متجرِّداً من ثيابه حول الكعبة، أو شربِ الخمر، أو مرَّتيْن حين همَّ بحضور عرسٍ فوكَّل فتىً ليرعى غنمه، فحماه الله سبحانه وتعالى من ذلك مرَّتين بأن أنزلَ عليه النُّعاس لِيَحميه من الذَّهاب، فما أيقضه إلَّا حرُّ الشَّمس في اليوم التَّالي. فإذا كان قد حُمِي من ما هو أدنى من الشِّرك، أفلا تعتقد أنَّ الله سبحانه وتعالى سيحميه من الشِّرك نفسه؟

قال ابن إسحاق في السِّيرة: "فشَبَّ رسول الله ﷺ، والله تعالى يَكْلَؤُهُ ويَحفظُه، ويَحوطُه من أقذار الجاهلية".

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُم مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾. الآية تُشير إلى أنَّ كلَّ نبيٍّ قبل ولادة الرّسول ﷺ... كلُّ نبيٍّ دون استثناء، لم يُبعَث قطُّ إلَّا بعد أخذ العهد عليه بالإيمان بالرَّسول محمد ﷺ ونصرته لو ظهرَ في زمانه.

أفتظنُّ أنَّ الله سبحانه وتعالى يأمرُ بمثل هذا الميثاق على من قد يقعُ في الشِّرك؟ نقلَ بعض العلماء إجماعاً في هذا الأمر، فقد ذكره ابن تيميَّة وذكره ابن أبي العزِّ، وذكره القاضي عياض والرَّازي. لقد قالوا أنَّ هناك إجماعاً على عِصمة الأنبياء من الوقوع في الكفر والشِّرك قبل النُّبوَّة وبعدها.

بعض النَّاس يفتحون الكتب وينتقون ما يناسبهم وما يُؤيِّد رأيهم، وقد حذَّرْنا من هذا مراراً في مسائل مختلفة، فالأمر خطير أن يَفتحَ الإنسان الكتب فيقتطفُ منها أقوالاً عشوائيَّة خارجةً عن السِّياق، أو أقوالاً ضعيفة ومنكَرَة، ثم يَستدلُّ بها وهو يَظنُّ أنَّه شيخ الإسلام، ويحسبُ أنَّ الأمر جائزٌ لمجرَّد أنَّه وجدَ هذه الأقوال في كتابٍ.

فقط مؤخَّراً، وفيه هذه المسألة نفسِها المتعلِّقة بوقوع الرَّسول ﷺ في الشِّرك.

بلغني أمرُ جاهلٍ كان ينشرُ هذا القول، وجلبَ أقوالاً عشوائيَّـة من كتبٍ مختلفة ليُحاجَّ بها على أنَّ الرَّسول ﷺ كان على الشِّرك قبل الوحي، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ بعدها حتَّى أَعلنَ صراحةً أنَّه قد خرجَ من الإسلام والعياذ بالله.

كن حذراً فيما تقول، وحذراً فيما تَفعل، فلكلِّ فعلٍ عواقبٌ. كلُّ كلمة، وكل قول متهوِّر، وكل افتراء على مسلمٍ عاديٍّ، أو عالمٍ عاديٍّ له عواقبه، فكيف إذا كان الأمر يتعلَّق برسول الله ﷺ؟ قد يُكلِّفك هذا الثمن الأعظم: دينَك، والعياذ بالله. أعاذنا الله سبحانه وتعالى جميعاً من ذلك.

الجزء التَّالي من السُّؤال يتعلَّق بآيتيْن: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، و ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾، وأقوال بعض التَّابعين التي تُشير إلى أنَّ الرَّسول ﷺ كان على الشِّرك.

هناك آيتان ذُكِرتا في السُّؤال، يستخدمها البعض للادِّعاء الباطل أنَّ الرَّسول ﷺ كان على الشِّرك قبل البعثة، وإنَّما سبب هذا اللَّبس بعض التَّفاسير المتعلِّقة بهاتيْن الآيتيْن.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، يُزعم أنَّ الآية قد فسَّرها السُّدِّي بأنَّها تعني أنَّ النَّبي ﷺ كان على أمر قومه أربعين عاماً. هذا يُزعم أنَّه أثرٌ ينتهي إسناده إلــى

السُّدِّي، أي: يزعمون أنَّ السُّدِّي قاله، والسُّدِّي من التابعين، لم يلقَ الرَّسول ﷺ، وتُوُفِّي حوالي سنة 128 بعد الهجرة.

أمَّا الآية الثَّانية التي ذُكرت في السُّؤال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾، ويستخدمها بعض النَّاس للادِّعاء الباطل أنَّ الرَّسول ﷺ كان -على زعمهم- على الشِّرك، فيوجد تفسيرٌ منسوبٌ إلى الضَّحَّاك، أنَّه قال في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾. يُزعم أنَّ الضَّحَّاك قال أنَّ الوِزر الذي حُطَّ عنه يدلُّ على الشِّرك، "الشِّرك الذي كان فيه" قبل أن يبعثه الله سبحانه وتعالى رسولاً. والضَّحَّاك بن مُزاحم الذي يُنسَب إليه هذا القول هو تابعيٌّ، كالسُّدِّي في الأثر السَّابق، وكلاهما لم يلقيَا رسول الله ﷺ. بين الضَّحَّاك ورسول الله ﷺ قرنٌ تقريباً، فقد تُوُفِّي حوالي سنة 102 بعد الهجرة، فكِلتا هاتين الرِّوايتيْن: التي نُسِبت إلى السُّدِّي، والأخرى التي نُسِبت إلى الضَّحَّاك، فيما يتعلَّق بهاتيْن الآيتيْن: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، و ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾، كِلتا هاتيْن الرِّوايتيْن المتعلِّقتيْن بهاتيْن الآيتيْن، ليْستا عن الرَّسول ﷺ، ولا يمكن اتِّصال سندهما إلى صحابيٍّ بوجهٍ يُشعَر بأنَّ ذلك الصَّحابيَّ قد سمعها أو علمها عن رسول الله ﷺ.

رواية السُّدِّي في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، وزعمهم أنَّ النَّبــيَّ

ﷺ كان على أمر قومه أربعين سنةً. قال ابن قُتيْبة في ذلك أنَّما يعني بذلك أنَّ رسول الله ﷺ كان متَّبعاً للعرب الذين كانوا متمسِّكين بالتَّوحيد (على بقايا دين إبراهيم)، مثل مَن ذكرتُ: مثل زيد. فهو كان يُفسِّر القول مبيِّناً أنَّ المراد بذلك أنَّ النَّبي ﷺ كان متَّبعاً أمر العرب الذين كانوا متمسِّكين بالتَّوحيد، وليس بأنَّ النَّبي ﷺ كان على الشِّرك قطُّ. إذاً، فهذا الشَّرح يَحُلُّ المسألة، ولكن ليس هكذا فَهِمَه الكثيرون.

وأمَّا رواية السُّدِّي، فإنَّ الظَّاهر أنَّها صحيحةٌ إذا نَظَرْتَ إلى الإسناد، غير أنَّ علماء الحديث قد اختلفوا في موثوقيَّة السُّدِّي نفسه، فمنهم من وثَّقه، وآخرون نسبوه إلى الكذب، وثمَّة حتى روايات تَزعم أنَّه كان متشيِّعاً، وأنَّه شتمَ أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما-.

وأمَّا بالنِّسبة لرواية الضَّحَّاك، فيَظهر أنَّ في إسنادها عِللٌ. لكن فلنضعْ جانباً الجدل الطَّويل حول موثوقيَّة السُّدِّي نفسه، وأيَّ مشاكل في أسانيد كِلا الرِّوايتيْن. لنفترض جدلاً أنَّ كليْهما ثابتان إلى السُّدِّي والضَّحَّاك، وانَّ السُّدِّي يُعدُّ ثقةً، فهذا اتِّهامٌ جسيمٌ وخطيرٌ، ولا يمكن إثباته إلَّا بآية في القرآن، أو حديث صريح من رسول الله ﷺ، أو عن صحابيٍّ علِمه من الرَّسول ﷺ، أو رأى الرَّسول ﷺ يفعله. فلن يَعلمَ مثل هذه المسألة إلَّا رسول الله ﷺ

والصَّحابة، وفوق ذلك فإنَّها تتضمَّن دعوى ذات خطورة عظيمة، وهي تناقض الأدلَّة الثَّابتة المُحكَمَة التي تُؤكِّد طهارة رسول الله ﷺ من الشِّرك طوال حياته.

لا يُثبِت هذا الزَّعم إلَّا حديثٌ أو آية، وإن عاملْنا هذه الرِّوايات كحديث -لأنَّ الحديث هو وحده ما يمكن أن يُثبِت مثل هذه المسألة-، فإنَّ ثمَّة فجوة كبيرة في الإسناد، فهناك انقطاع طويل بين السُّدِّي ورسول الله ﷺ، وبين الضَّحَّاك ورسول الله ﷺ، فلم يكن أيٌّ منهما صحابيّاً لقِيَ رسول الله ﷺ، ولا هم يَنسِبون هذا الخبر إلى الرَّسول ﷺ ولا إلى صحابي. ولو عومِلتْ هذه الرِّوايات كحديث -لأنَّه خبرٌ لا يمكن أن يُعرَف من حديث- لكانت ستُصنَّف حينئذ كحديثٍ "مُعْضَلٍ".

إنَّ السُّدِّي والضَّحَّاك ينقُلان حَدَثاً لا يمكن أن يكونا قد شاهداه أو علِماه بأنفسهما، فثمَّة فجوة زمنيَّة كبيرة بينهما وبين رسول الله ﷺ، ولم يُشِرْ أيٌّ منهما إلى مَن أخذَ عنه هذا الخبر، مثل صحابيٍّ، وهذا أمرٌ جوهريٌّ في إثبات مثل هذه المسألة. تُوُفِّي السُّدِّي سنة 128 بعد الهجرة، وتُوُفِّي الضَّحَّاك سنة 102 بعد الهجرة، وبسبب ذلك... بالطَّبع، لم يُعرَف عن أيٍّ منهما أنَّ له أسانيد متَّصلة، إسناداً متَّصلاً إلى الرَّسول ﷺ. هذا مجرَّد قولٍ للسُّدِّي والضَّحَّاك، وهو يتعلَّق

بأمرٍ جسيمٍ خطيرٍ، تفسيرهما في مثل هذه المسألة لا يُعتبَر حجَّةً. لا يُعتبَران حجَّة في مثل هذه المسألة الأصوليَّة، فالتَّفسير من هذا النوَّع، خصوصاً إذا تعلَّق بعقيدة رسول الله ﷺ، لا يمكن إثباته بروايات منقطعة أو ظنِّيَّة من الأجيال المتأخِّرة، وذلك حتَّى ولو كانت صحيحة الإسناد. قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة في "مقدِّمة التَّفسير" ناقلاً قولاً لشُعبة بن الحجَّاج: "أقوال التَّابعين في الفروع ليست حجَّة، فكيف تكون حجَّة في التفَّسير؟".

نَسبَ قولاً لشعبة بن الحجَّاج أنَّه قال: "أقوال التَّابعين في الفروع.."، والمراد بـ "الفروع" هنا: فروع الفقه، وقد شرحنا ماذا يعني ذلك في درسنا [1]، فلدينا درس سُمِّي بهذه التَّسمية. فقال ابن تيميَّة أنَّ شعبة بن الحجَّاج قال أنَّ أقوال التَّابعين في فروع الفقه، -وفروع الفقه: مثل الوضوء والمسائل الفرعيَّة الصَّغيرة، والأمور الثَّانويَّة-. إذا كانت أقوالهم في الفروع ليست حجَّة، فكيف تُعتبَر حجَّة في التَّفسير؟ أي: إذا لم تكن آراء التَّابعين مُلزِمةً وليست حجَّةً في فروع الفقه، فكيف يمكن أن تكون قطعيَّة في مسائل التَّفسير؟ و المراد بذلك حين تتعارض أقوالهم مع الأدلَّة الأخرى أو مع أقوال غيرهم، أمَّا إذا لم يكن ثمَّة تعارض، فلا إشكال في الأمر.

---

(1) سلسلة شرح فروع الفقه.

لا يمكن اعتبار أقوالهم حجَّة على من خالفهم، خصوصاً في مسألة أصوليَّة مثل هذه، وبالأخصِّ في مسألة تُعارِض أدلَّة أخرى وتُخالِف الإجماع، وخصوصاً في مسألةٍ لا يمكن معرفتها إلَّا من الرَّسول ﷺ أو الصَّحابة. وهذا يأخذنا إلى المتن، فمتنُ كِلا الرِّوايتيْن مُنكَرٌ، ويُناقِض أدلَّةً أخرى، ويُخالِف الإجماع.

قد ذكرتُ أنَّ هناك إجماعاً على عِصمة الأنبياء من الكفر والشِّرك قبل البعثة وبعدها، فلننظر الآن إلى بعض معاني الآية، لتُدرِك فكرةً عنها:

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾، قال بعض العلماء: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ "ضَالًّا" هنا بمعنى: غافلاً، أي أنَّ رسول الله ﷺ كان غافلاً عن "تفاصيل" الشَّريعة قبل الوحي، وإنْ كان على التَّوحيد، ففي هذا التَّفسير، كلمة "ضَالًّا" تعني: غافلاً. غافلاً عن ماذا؟ عن التَّفاصيل، عن تفاصيل الهدى التي سيتعلَّمُها لاحقاً، والتي ستُوحَى إليه فيما بعد. أي: وجدَك غافلاً عن تفاصيل الشَّريعة، فهداكَ إليها بالوحي. وهذا كمعنى الآية التي أخبرَ الله سبحانه وتعالى فيها رسوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾، فهذا يكون معنى الآية ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾، وهذا يُشبِه آيةً أُخرى يَستدِلُّ بها بعضهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا

الْإِيمَانُ﴾.

يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾، "وَلَا الْإِيمَانُ" هنا تعني: لم تكن تعلمُ "تفاصيل" الإيمان، المنفيُّ هنا هو العلم التَّفصيلي بالإيمان، لا الاعتقاد الإجمالي، لأنَّ رسولنا كان على التَّوحيد.

إنَّ معنى الآيات: أنَّ الرَّسول ﷺ لم يكن قد تلقَّى بعد العلم التَّفصيلي بأحكام وتشريعات الإسلام، وبتفاصيل الإيمان. فما لم يكن يَعلمُه الرَّسول ﷺ، وما كان غافلاً عنه، هو تفاصيل الإيمان.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾، ما لم يكن يعلمه الرَّسول ﷺ عن تفاصيل الإيمان في الآية، يُشبِه ما ذكره أنَّه لم يكن يعلمه عن الكتاب.

مرَّة أخرى: ما لم يكن يعلمه الرَّسول ﷺ عن تفاصيل الإيمان في الآية، يُشبِه ما ذُكِر أنَّه لم يكن يعلمه عن الكتاب. ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾، ماهي العلاقة المشتركة بينهما؟ أنَّه لم يكن يعلمُ التَّفاصيل ، العلم التَّفصيلي، لذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾، ولم يَقُل: "ما كنت مؤمناً" لأنَّه كان على التَّوحيد. لذا فلفظ "ضَالًّا"

في العربيَّة، كما في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، قد يعني: غافلاً. وهو يُشبِه جدّاً ما نفى الله سبحانه وتعالى عن نفسِه في المعنى: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾.

قال الله سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾، أي: لا يغفلُ/ يغيب عنه شيء أبداً. فكلمة "يَضِلُّ" في قوله: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾، تعني: أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يَغفَلُ أبداً، وممَّا يُؤيِّد هذا المعنى آيةٌ في سورة يوسف: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ﴾، فقوله: "الغَافِلِينَ" هنا أي: أنَّ الرَّسول ﷺ قبل هذا لم يكن له علمٌ بالقصَّة. معناه: قبل أن نوحي إليك سورة يوسف ، كنتَ من الذين لا يعلمون هذه القصَّة. لم تكن تعرِفُ القصَّة قبل أن نوحيها إليك، ولا ينبغي ذلك أنَّه لا يعرف التَّوحيد، أو أنَّه وقعَ في الشِّرك، فخلاصة ما قاله بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، أنَّ المراد أنَّه كان غافلاً. أي: "وجدك غافلاً"، غافلاً عن ماذا؟ عمَّا يُراد بك من أمر النُّبوَّة. لم تكن تعلم أنَّك ستصير رسولاً ونبيّاً. وهذا النَّوع من الغفلة لا يقتضي نقصاً، ولا يدلُّ على أنَّه كان على الشِّرك في أيِّ مرحلةٍ من مراحل حياته.

وقال آخرون: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، أي: أنَّ الله سبحانه وتعالى

وجدَكَ في قومٍ ضُلَّال.

وقال آخرون: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾، أي: أنَّ الله سبحانه وتعالى وجدك في قوم ضُلَّال فهداهم بك. (١)

وقال آخرون: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾، تعني أنَّ الرَّسول ﷺ كان مُحِبّاً لله سبحانه وتعالى، ومِن أين جاؤوا بهذا؟ من آية أخرى في سورة يوسف، حيث قال إخوة يوسف لأبيهم يعقوب: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾، ومعنى قولهم "ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ": أنَّك ما زلت على حالك في محبَّتك ليوسف، فلم تنسَه يوسف، ولم تَتَسَلَّ عنه.

وهذا يشيرُ إلى حبِّ يعقوب العميق ليوسف وانشغاله الدَّائم به، وكثرة سؤاله وبحثه المتواصل عنه. فقالوا: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾. اعتماداً على هذا، على معنى "ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ" في هذه الآية، يعني أنَّ النَّبي ﷺ كان يَحمِل محبَّةً عظيمةً لله سبحانه وتعالى، وأنَّ قلبه كان مشغولاً كلِّيّاً به.

---

(١) قيل: إذا وَجدت العرب شجرةً منفردة في فَلاةٍ من الأرض، لا شجر معها، سمَّوها "ضالَّة"، فيُهتدى بها إلى الطَّريق. فقال الله تعالى لنبيِّه محمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾، أي: لا أحد على دينك، وأنت وحيدٌ ليس معك أحدٌ، فهدَيْتُ بك الخلقَ إليَّ.

بل وقال آخرون: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، تُشير إلى حادثة خاصَّة ضلَّ فيها الرَّسول ﷺ حقيقةً. لقد ذُكِرَ أنَّ الرَّسول ﷺ -وهو طفل- قد ضلَّ في شِعاب مكة، فردَّه الله سبحانه وتعالى إلى جدِّه عبد المطَّلب.

ليس هذا درساً في التَّفسير، ولكنَّ الغرض من ذكري لبعض هذه التَّفسيرات هو إظهار أنَّ لهذه الآية معاني كثيرة، أعني الآية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، وقد تَشملُ معنىً واحداً أو حتَّى جميع تلك المعاني، أمَّا المعنى الذي لا يمكن أن تشملَه بوجهٍ من الوجوه فهو أن يكون الرَّسول ﷺ قد قارفَ الشِّرك. فتفسير مثلُ هذا لا أصل له بتاتاً. هو يُناقض الأدلَّة، ويُخالف الإجماع، ولا يتَّفق مع سياق الآية.

أمَّا الآية الأخرى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾، فهي مماثلةٌ للآية السَّابقة. لها عدَّة معانٍ، وأحد المعاني التي لا يمكن أبداً أن تشمله هو أنَّ الرَّسول ﷺ قد قارف شركاً.

﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾، هذا يُشبِه في المعنى الحديث الوارد في صحيح مسلم، حيث قال الرَّسول ﷺ أنَّه يوجد نوعٌ من الغمِّ أو الثِّقَل الذي يَشعُرُ به أحياناً على قلبِه، ولذلك يَستغفِر الله سبحانه وتعالى مائة مرَّة في اليوم:

"إنَّه لَيُغان على قلبي، ولإنِّي لَأستغفر الله في اليوم مائة مرَّة". [1]

﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾، قد تعني أيضاً أنَّ الله سبحانه وتعالى حطَّ عنه وِزر الخطأ اليسير والسَّهو. وقد تعني أيضاً أنَّ أعباء النُّبوَّة ومسؤوليَّاتها قد خُفِّفَت عنه. فقد خُفِّفَت عنه حتَّى لا تَثقُل عليه، لأنَّنا نعلم أنَّه كان في الابتداء يَثقُل على رسول الله ﷺ الوحي.

وقال آخرون: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾، يعني أنَّه كان محفوظاً من الوِزر ومعصوماً منه، حتَّى قبل نبوَّته، خلال الأربعين سنةً الأولى من حياته.

وقال آخرون: إنَّ المراد أنَّ الله سبحانه وتعالى حطَّ عنك وِزر الأمَّة. ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾، يعني أنَّ الله سبحانه وتعالى وَضعَ عنه وِزر هذه الأمَّة. ولماذا نُسِبت ذنوب الأمَّة إلى الرَّسول ﷺ نفسه؟ فالآية تقول: "عَنْكَ"، ولم تقل: "عَنْ أُمَّتِكَ". قالوا: نُسِبَت ذنوب الأمَّة إلى الرَّسول ﷺ في هذه الآية بسبب شدَّة همِّه وانشغال قلبه بأمر الأمَّة.

---

(1) [رواه مسلم].

هذا نموذج من تفسير الآية، ومثل الآية السَّابقة، فمن المعاني التي لا يمكن أبداً أن تشملها: هو الشِّرك، لأنَّ النَّبي ﷺ لم يرتكب الشِّرك قطُّ. فكيف لأحدٍ أن يتحدَّث عن رسول الله ﷺ بطَيْشٍ وحماقةٍ مثل هذه؟

---

(1) انتهـــى.

الفهرس